الفصل الرابع عشر:
العباسيون وفلسطين

رباب يحي عبد المحسن

تنسب الخلافة العباسية إلى العباس عم النبي (ﷺ)، فمؤسس دولة بني العباس هو عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، ويعتبر قيامها انتصارًا للفكرة التي نادى بها بنو هاشم، عقب وفاة الرسول (ﷺ)، بإسناد الخلافة إلى أهل الرسول وذويه، وقد هزمت هذه الفكرة، في مطلع الإسلام وانتصار التفكير الإسلامي الصحيح، وهو أن الخلافة ملك للمسلمين، يولون على أنفسهم من يشاءون، لكن الفرس الذين كانوا يدينون بمبدأ الحق الإلهي المقدس، ظلوا يعملون على نشر مبادئهم، حتى استطاعوا أن يأتوا ببني هاشم إلى الخلافة.

كان العلويون أقرب إلى الرسول في نظر الجماهير، لمكانة فاطمة من أبيها، ولمكانة علي بن أبي طالب ابن عمه وصهره، ثم مكانته في الإسلام، ولكن العباسيين بعد أن نالوا السلطان، أذاعوا أنهم أولى بني هاشم بميراث الرسول، لأن جدهم عم الرسول، ولا ينحدر الميراث إلى ابن العم مع وجود العم، وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبة.

استمرت الخلافة العباسية من سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠م إلى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م، أي أن مدتها ٥٢٤ سنة، وفي سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨م زحف التتار على العالم الإسلامي وقتلوا الخليفة المستعصم (أبو أحمد

عبد الله المستعصم) وكثيرين من أهله، وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية.

المدة الطويلة التي قضاها بنو العباس في الخلافة لم تكن، بطبيعة الحال، على نمط واحد، من ناحية مدى سلطة الخلفاء، وإنما تفاوتت هذه السلطة، مما جعل المؤرخين يقسمون مدة الخلافة العباسية إلى عصور، تختلف ملامح كل عصر منها عن سواه، وهذه العصور هي:

العصر الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ - ٨٤٧م): وكانت السلطة خلاله في أيدي الخلفاء.

العصر الثاني (٢٣٢ - ٥٩٠ هـ/ ٨٤٧ - ١١٩٤م): وقد ضاعت السلطة خلاله من أيدي الخلفاء.

العصر الثالث(٥٩٠ - ٦٥٦ هـ/ ١١٩٤ - ١٢٥٨م): وفيه عادت السلطة إلى أيدي الخلفاء، ولكن في بغداد وما حولها[1].

المناخ السياسي:

حتى أوائل سنة ١٣٢ هـ، لم تكن قد ظهرت الكلمتان " العباسيون " و " العلويون " في أفق التاريخ ظهورًا واضحًا، بل كان هناك تعبير يشمل هؤلاء وأولئك، هو " بنو هاشم " أو " الهاشميون " أو " آل البيت "، وكان هؤلاء يكافحون معًا، ويناوئون بني أمية، متساندين، رجاء أن ينتزعوا لأنفسهم الخلافة، التي اعتقدوا أنها حق لهم، اغتصبه الأمويون.

كان العنصران اللذان يتكون منهما " الهاشميون " يختلفان، اختلافاً بينًا، فالعلويون فيهم طيبة وصفاء، يعتقدون أن الخلافة حقهم، وأن الناس جميعًا يسعون ليردوها إليهم، أما العباسيون فكان فيهم دهاء وسياسة، وقد

obeikandl.com

وقف العلويون، مدة طويلة، في قمة الزعامة من بني هاشم، وهب زعماء بنو هاشم من العلويين في وجه بني أمية عدة مرات، وناوئوا سلطانهم، لكن الأمويين كانوا يضربون هذه الحركات، ضربات قاسية، ويقضون على زعمائها، ومن ضحايا العلويين برز اسم الحسين بن علي، وحفيده زيد، ثم يحي بن زيد.

فلسطين:

وسط هذا المناخ السياسي المحتدم بين البيتين الأموي والعباسي، لم يقف عرب الشام موقفًا صلبًا للدفاع عن البيت الأموي الحاكم، وقد مكن هذا الموقف العباسيين من أن يقضوا على فلول الأمويين، ومن ظل على الولاء لهم، على أن القلة القليلة من أشياع بني أمية، التي نجت من بطش بني العباس، نهضت لمعارضة البيت العباسي الحاكم، بكل ما أتيح لها من أساليب.

تجلت هذه المعارضة الشامية لبني العباس بثورات، قامت بها القبائل، بقيادة شيوخها، أو بعض أمراء البيت الأموي، ولم تكن حقيقة ولاء أهل الشام لبني أمية بخافية على رجال البيت العباسي، لذا اعتمدوا البطش ببني أمية، أو من يواليهم.

كما حاول العباسيون محو آثار الأمويين في بلاد الشام، ومن ذلك ما فعلوه بالمسجد الأقصى الذي بناه الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٧٢هـ/ ٦٩٣م وأتمه الوليد بن عبد الملك عام ٨٦ هـ/ ٧٠٥م، مكان مسجد الخليفة عمر بن الخطاب، وقد أصاب بناء المسجد شيء من الخراب، في عهد الخليفة العباسي، المأمون وحين قام هذا الخليفة بزيارة بيت المقدس،

سنة ٢١٥ هـ/ ٨٣٠م، أمر بترميمه، ولما انتهى العمل من ذلك، استبدلوا اسم الخليفة الأموي عبد الملك باسم المأمون، ولكنهم غفلوا عن تغيير السنة التي تم فيها البناء وغدا المكتوب: " بني هذه القبة عبد الله الإمام المأمون، أمير المؤمنين، في سنة اثنتين وسبعين، تقبل الله منه ورضي عنه آمين[٢]، الأمر الذي يفضح التزوير الذي وقع في اسم باني القبة، كما يقال بأنه سبق أن حدثت عدة زلازل أثرت في بناء المسجد الأقصى وخاصة زمن الخليفة العباسي أبي الجعفر المنصور، فأمر بقلع الصفائح الذهبية والفضية التي كانت على أبواب المسجد الأقصى، وضربت دنانير، ودراهم أنفقت في ترميمه، وإعادة بناء ما تخرب منه[٣].

ثورة "المبرقع":

لعل أهل الثورات التي قامت في فلسطين إبان العصر العباسي الأول، وأخطرها هي ثورة المبرقع اليماني، التي جرت في عام ٢٢٧ هـ/ ٨٤١م، أي زمن الخليفة المعتصم، وهي الثورة الأولى التي انطلقت شرارتها من فلسطين، وغيرت موقف الأهالي من الحكم العباسي، وسبب ثورة المبرقع ـ وهو رجل من عرب فلسطين اليمانية، يدعى أبا حرب ـ أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها، وفيها إما زوجته أو أخته، فمنعته من ذلك، فضربها بسوط كان معه، فلما رجع أبو حرب (المبرقع) إلى منزله، بكت، وشكت إليه ما فعل بها، وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه، فأخذ أبو حرب سيفه، وذهب إلى الجندي، وهو فار، فضربه حتى قتله، ثم هرب وألبس وجهه برقعًا، كي لا يعرف، وهرب إلى جبل من جبال الأردن، وأخذ يدعو الناس لنفسه، فتبعه الكثيير، كانت

غالبيتهم من الفلاحين، والريفيين، وحراث الأرض، واعتقد أتباعه بأنه السفياني المنتظر، وأنه يملك الشام، وقد بلغ تعداد أصحاب المبرقع مائة ألف رجل، ولإضفاء صفة شرعية على ثورته ادعى بأنه أموي النسب.

لقد بلغت أخبار ثورته، المعتصم وكان مريضًا بمرضه الذي توفي به، فأرسل إليه رجاء بن أيوب الحضاري، في زهاء ألف من الجند، وحين وصل إليه لمس كثرة أتباعه فتهيب قتاله، ولما دنا وقت حراثة الأرض، انصرف معظم أنصاره من الفلاحين إلى أعمالهم الزراعية، ولم يبق معه إلى نفر قليل، لا يتجاوز الألف أو الألفين، وحينئذ وجد رجاء بأن الفرصة مواتية لقتال المبرقع اليماني، فهاجمه، وتمكن من أسره، وحمله إلى سامراء[٤].

وهكذا يمكن اعتبار ثورة المبرقع اليماني الثورة التي لم تعبر عن النقمة السياسية فحسب، بل عن النقمة الاقتصادية والاجتماعية أيضًا، ويتضح ذلك من نوعية الناس الذين انضموا إليها، ومن الأسباب التي أدت إلى قيامها.

سكان فلسطين:

لم يطرأ تبدل جوهري على التركيبة في فلسطين، بعد قيام خلافة بني العباس وفي العهود التي تلتها، حيث ظل العرب ومواليهم المسلمون يشكلون الغالبية العظمى من السكان.

لعل أهم تغيير نلحظه في المجال السكاني، في هذه الفترة من تاريخ بلاد الشام، ومنها فلسطين هو ظهور الطبقية، بشكل أوضح مما كانت

عليه في العصور السابقة، حيث غدا المجتمع طبقتين متمايزتين، هما: طبقة العامة، وطبقة الخاصة، فالفصل والتمازج بين العناصر السكانية لم يعد قائمًا على أساس الدين أو العرق، بل غدا ذلك يقوم على أساس طبقي(٥). ويرجع ذلك إلى سوء الأحوال الاقتصادية وفساد الإدارة، وتفشي الرشوة.

الإدارة:

حين آل أمر الحكم إلى بني العباس، لم يغيروا في التنظيم الإداري، الذي كانت عليه فلسطين قبل صيرورة الخلافة إليهم، إنما غيروا كلمة " جند "

التي كانت تستعمل لتقسيمات بلاد الشام الإدارية زمن بني أمية، إلى كلمة " ولاية "، وأصبحت الرملة مركز ولاية فلسطين، وقسمت ولاية فلسطين إلى اثنتي عشرة كورة هي: الرملة، إيلياء، عمواس، يبنى، يافا، قيسارية، نابلس، سبسطية، عسقلان، غزة، وبيت جبرين.

كما لم يطرأ على النظم الإدارية أي تغيير زمن بني العباس، كذلك النظام الضريبي، فقد ظل من حيث الأسس والقواعد المتبعة في جباية الضرائب وأنواعها كما كان عليه زمن الأمويين.

استهل العباسيون حكمهم لفلسطين بالمذابح، التي حاولوا من خلالها استئصال شأفة بني أمية وأنصارهم، فعهد الخليفة العباسي الأول، أبو العباس السفاح، إلى عبد الله بن علي بولاية الشام، الذي اعتقد بأن أهم مهامه هي استئصال شأفة بني أمية، أو من يواليهم بصلة أو نسب فقتل من وقعت يده عليه ممن بقى على قيد الحياة منهم.

ولكي يتمكن من ذلك بعث، حين قدم إلى فلسطين، إلى بني أمية، وأظهر لهم أن أمير المؤمنين أوصاه بهم خيرًا، وأمره بصلتهم، ورد أموالهم عليهم، فقدم عليه من أكابر بني أمية وخيارهم ثلاثة وثمانون رجلا، على حد زعم بعض الروايات، أو اثنين وسبعون على ما تزعم روايات أخرى، فما كان منه إلى أن أعد لهم مجلسًا، فيه أضعافهم من الرجال، ومعهم السيوف والغمد، ولما أخذوا مجلسهم، قام جنوده، فضربوا الأمويين حتى قضوا عليهم، وقد أراد عبد الله من فعلته هذه أن تكون عبرة لكل أنصار البيت الأموي، وحتى يقضي على أحلام كل من تسول له نفسه بالثورة على بني العباس، انتقامًا لبني أمية(٦).

لقد توزعت فترة حكم بني العباس في فلسطين إلى قسمين(٧):

١- فترة الارتباط المباشر بالعراق (١٣٢ - ٢٦٤ هـ / ٧٥٠ - ٨٧٨ م).

٢- فترة الارتباط بمصر (٢٦٤ - ٣٥٨ هـ/ ٨٧٨ - ٩٦٩ م).

في الفترة الأولى، كان قد ترتب على انتقال السلطة إلى بني العباس، تدهور حال جنوب بلاد الشام، وانسحابه إلى الظل بعد أن كان في مكان الصدارة، زمن بني أمية، وأصبح هذا الجزء ولاية ثانوية، يشك العباسيون في ولائها، فلم يعط العباسيون حكمها إلا لأمراء البيت العباسي، أو لبعض المقربين المخلصين، كل الإخلاص، لهذا البيت.

أما الفترة الثانية، وهي فترة الارتباط بمصر، فقد انقلبت الأمور في بلاد الشام، وكذلك في مصر، ودخلت هذه البلاد في عهد من القوة

الإقليمية السياسية، والنشاط الاقتصادي بعكس ما كان يعانيه مركز الخلافة في العراق من فوضى عسكرية، وضعف السلطة المركزية، وبهذا ضعفت صلات جنوب الشام مع العراق، وتحولت هذه الصلات من بغداد إلى مصر، وقد اجتمع حكم جنوب الشام كله في يد وال واحد على الأغلب، وأصبح للقبائل العربية دور بارز على مسرح الحياة السياسية.

الزراعة والصناعة والتجارة:

افتقرت بلاد الشام عامة إلى المجاري المائية الدائمة، التي يمكن الاستفادة منها في الري، الأمر الذي أدى إلى اعتماد الزراعة، اعتمادًا كبيرًا، على مياه الأمطار في تقرير مصير المواسم الزراعية فيها. حيث انحصرت الزراعة في الشام بوجه عام في الجهات التي تستقبل كميات من المطر، والمناطق التي يمكن أن يستفاد منها من المصادر المائية الطبيعية للري، كالأنهار، والبحيرات، والعيون، وما شابه. وكانت السنة الزراعية تبدأ في بلاد الشام، في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، لأنه الشهر الذي يبدأ فيه سقوط المطر.

أما الأرض، فاستثمرت بطرق عديدة: كأن يقوم المالك بزراعتها، وجني محاصيلها. وينطبق هذا الأسلوب على الأراضي قليلة المساحة، أو أن يستأجر العمال للعمل في أرضه لقاء أجر محدد، أو يؤجر الأرض لقاء مبلغ من المال سنويًا، أو لقاء جزء من المحصول.

وظلت فلسطين، على مدى عصور تاريخها، محافظة على نمط زراعي واحد، ولم تدخل على هذا النمط تغييرات جذرية أو كبيرة، اللهم إلا دخول زراعات حديثة، في عصر لم تكن معروفة في العصر الذي

سبقه فالمحاصيل الزراعية لم تختلف في الماضي عما هي عليه الآن، إلا في المحاصيل التي عرفت بعد اكتشاف العالم الجديد، كالتبغ، والبندورة، والبطاطا، والذرة الصفراء، وكذلك قصب السكر الذي نقله العرب عن الصينيين(٨)، وهذه الزراعات الحديثة قليلة وطارئة.

إلى ذلك، كان الخل والزيت من الضرائب العينية التي تدفعها بلاد الشام إلى الخزانة المركزية، الأمر الذي يدل على وفرة محاصيل الكرمة وشجر الزيتون، فالزيتون كان آنذاك متوفرًا بكثرة في أغلب نواحي فلسطين، ولاسيما في منطقة البلقاء ونابلس، والجليل، أما أشجار الكرمة فكانت شائعة في البلقاء، والمقدس، وكذلك التين، وسواه من الفواكه، والخضروات(٩).

في مجال الصناعة، اشتهرت الشام عمومًا، ومنذ القدم، بصناعة الخزف، وقد حافظت على هذه الشهرة على مدى عصور التاريخ الإسلامي، وبخاصة الخزف المنقوش، وكذلك الزجاج الملون المطلي بالميناء الذي كان يصل إلى بقاع شتى من العالم، كذلك امتازت الشام بصناعة الأقمشة الحريرية، فضلاً عن صناعات أخرى: كصناعة السفن في عكا وصناعة السكر.

أما في مجال التجارة، فيمكن تقسيم التجارة في بلاد الشام إلى قسمين: تجارة داخلية وأخرى خارجية، ففي الأولى، كان النشاط التجاري يتمركز في الأسواق التي تقام في كل مدينة، وكان لكل طائفة من التجار سوقًا يختصون بها، وكانت الحوانيت تمتد على طول الشارع من الجانبين، واتخذت الأسواق أسماء السلع التي تتخصص ببيعها، ولطالما حصلت

موانئ فلسطين، وبخاصة عكا، على ما تحتاجه من السلع من سوق دمشق إلى جانب ما كان يصلها من بضائع عن طريق البحر، سواء من بقية الموانئ السورية، أو من تجارتها البحرية عامة، واستمدت أسواق بيت المقدس شهرتها في هذه الفترة، كسوق ناقلة للتجارة بين مغرب الدولة الإسلامية ومشرقها، وهناك كانوا يتقابلون مع الحجاج المسيحيين، فتتاح الفرصة للطرفين لتبادل البضائع.

في التجارة الخارجية، لم يتناسب حجم هذه التجارة مع موقع بلاد الشام المهم بين الشرق والغرب، أو مع ما يتوافر في هذه البلاد من موارد وخيرات، فكان التجار يستغلون موسم الحج ليسيروا في حماية قوافل الحجاج، ويقدموا البضائع إلى دمشق أو يبيعونها إلى تجار من الغرب.

فتجارة فلسطين في هذا العصر كانت في الغالب تجارة داخلية، ولم يكن للتجارة الخارجية شأن ملموس في الحياة الاقتصادية، وكانت مدينة بيت المقدس، بما لها من مكانة دينية عند المسلمين والمسيحيين، أهم مدن الشام التي تجري فيها معاملات تجارية مع الخارج.

تحالف العنصرية مع الفرنجة:

مضى على انتصار صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في القدس نصف قرن، فشل فيه الصليبيون الذين تشبثوا ببعض الحصون والقلاع، مثل صور، وعكا، وغيرهما، في الاحتفاظ بالقدس، أو أي من المناطق والمدن التي حررها العرب والمسلمون، ومن ثم أخذت إمدادات الغرب لهذه الإمارات والحصون تقل وتضمر، حتى عجزت عن مواصلة البقاء

في الأرض العربية، ولم يمد في أجلها، إلا ضعف الإمارات العربية، والفرقة التي أصابت أجزاء الوطن العربي، بعد صلاح الدين خاصة بعد استئثار المماليك بحكم مصر وبقاء إمارات الشام فريسة للضعف والمنازعات بين بقايا الأمراء الأيوبيين.

غير أن الغرب كان قد قرر أن يقوم بجولة أخرى، في صراعه ضد حضارة العرب والمسلمين، وتوافق هذا التفكير الاستعماري مع ظهور قوة الدولة المغولية (التتر) في أواسط آسيا، تلك الدولة التي كونتها قبائل وثنية جبلية، من الأتراك، ويقول مؤرخو الترك بأن الملك " النجه خان "، أحد ملوك الترك في الأزمنة القديمة، ولد له ولدان توأمان، هما " تتارخان "،
و " مغل خان "، وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين في عهد " إيلخان " ملك المغل، و " سونج خان "، ملك التتر، وجر هذا النزاع إلى حروب طويلة، انتصر فيها التتار تارة، فيما انتصر فيها المغول تارة أخرى، إلى أن جاء عهد " جنكيز خان "، الذي وحد بين المغول والتتار، فصارت له مملكة واسعة وعاصمتها مدينة " قراقروم " (١٠).

وقبل أن ينتصف القرن الثالث عشر الميلادي، اكتملت استعدادات في بلاط الدولة المغولية للقيام بزحف مدمر يستهدف احتلال الكثير من بلاد أوروبا بالإغارة على المناطق الشمالية الغربية لأوروبا، وهنا بذل الغرب جهودًا مضنية، كي يجعل وجهة هذا الزحف التتري إلى بلاد العرب والمسلمين، ولكي يقيم تحالفًا غير مقدس بينه وبين هذه القوة الوثنية

obeikandl.com

العنصرية، علـه يقتسم معها الوطن العربـي، ويعيد سيطرته ثانيـة علـى القدس وغيرها من مدن الشام، وفلسطين ففي سنة ١٢٤٥م أرسل البابا " أنيوسننت الرابع " بعثة إلـى " قراقروم " عاصمة الدولـة التترية، ورأس هذه البعثة مندوب البابا " جون ده بياني كابريني "، حيث قام بمباحثات طويلـة وشاقة، استهدفت تحويل مطامع التتار إلـى بلاد العرب، وإقامة حلف بينهم وبين الفرنجة، وعندما أقلعت من فرنسا الحملة الصليبية التي قادها ملكها " لويس التاسع "، قاصدة مصر، كي تحتلها، وتغزو من بعدها وعن طريقها فلسطين، توقفت هذه الحملة في جزيرة قبرص، شتاء ١٢٤٨ - ١٢٤٩ م، لاستكمال الاستعدادات، وهناك جاءت إلـى " لويس التاسع " بعثة تترية من قبل " خاقان " التتار، " جغطاي "، حملت معها التحف والهدايا، وعقدت المباحثات لإقامة هذا التحالف، ولما عادت إلى " قراقروم " صحبتها بعثة فرنسية لاستكمال البحث حول تسيير جيش تتري من الشرق ليحتل المشرق العربي، في الوقت الذي يهاجم فيه " لويس التاسع " مصر عن طريق دمياط، فلا تستطيع مصر نجدة المشرق، ولا يتيسر لجند المشرق أن يقفوا إلى جوار المصريين(١١).

لم تقض هزيمة " لويس التاسع " في مصر على الجهود المبذولة لعقد هذا التحالف، إذ خرجت من حصن الفرنجة، " عكا " سنة ١٢٥٢م بعثة فرنسية رئسها رجل الدين " جليوم ردبروك "، وذهبت إلى " قراقروم "، واستمرت تفاوض في بلاد الخان التتري " منكوقا آن "، خمسة أشهر كاملة للوصول إلى الاتفاق المنشود.

واستغل الفرنجة نفوذ إحدى زوجات " هولاكو " واسمها "

دوقوزخاتون "، وكانت مسيحية نسطورية، ذات نفوذ على قلب القائد، وعقله، وبعد مفاوضات استمرت خمسين يومًا متصلة في " قراقورم "، بين " هولاكو " وبين الأمير " هيتوم " الذي كان يومئذ، ملكًا على الإمارة الصليبية " أرمينيا " على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، نجح الفرنجة في إقناع التتار بعقد هذا التحالف، وتجهيز الحملة لتدمير بلاد العرب والمسلمين، بل أكثر من ذلك، نجحوا في أن يقرر " هولاكو " أن يكون نائبه في قيادة الجيش التتري، القائد " كتبغا "، وهو من قبيلة تترية، اعتنقت المسيحية على مذهب النسطوريين.

وعند ذلك جمع الأمير " هيتوم " جيشًا، انضم به إلى قوات " هولاكو "، وأتلى " البطريق " الأرمني المسيحي كي يمنح البركة للخان الوثني ولجنده الزاحفين لتدمير حضارة العرب والمسلمين[١٢].

فلسطين والوحدة العربية:

بعد أن دمر الجيش التتري الدولة الخوارزمية في فارس، بدأ زحفه على العالم العربي بدخول بغداد في ٧ صفر سنة ٦٥٦ هـ الموافق ١٣ فبراير / شباط سنة ١٢٥٨م، حيث قام بمجزرة استمرت، ولا تزال، مضرب الأمثال على مر التاريخ، حتى قدر المعتدلون من المؤرخين عدد القتلى في هذه المذبحة من أهل بغداد بثمانمائة ألف نسمة، فيهم الخليفة العباسي المستعصم (الذي قتل على يد هولاكو)، وأهل بيته، ومملكته من الأمراء والوزراء.

ثم بعد ذلك سقطت حلب بيد " هولاكو " في محرم سنة ٦٥٨ هـ، بعد حصار سبعة أيام ففر الملك الناصر، بمن معه من دمشق إلى غزة، يريد

obeikandl.com

اللجوء إلى مصر، ولكنه عاد وتردد خوفًا من عقاب الملك المظفر " قطز "، ففضل العودة والاستسلام للتتار، وذلك بعد أن ترك دمشق تسقط في يد العدو خالية من القوات المقاتلة، وقد أدى ذلك إلى أن أصبحت أرض الشام ميدانًا مفتوحًا أمام جحافل التتار، فأخذوا في التقدم، حتى بلغوا غزة، على مشارف مصر.

أرسل " هولاكو " رسالة شديدة اللهجة إلى الملك المظفر " قطز " يطلب فيها الاستسلام لكن " قطز " رفض الاستسلام، وقتل رسل " هولاكو "، وعلق رؤوسهم على باب زويلة، وقرر حتمية الخروج للقاء العدو، وضرورة قتاله، فخرج الملك المظفر " قطز " بجميع عسكر مصر، ومن انضم إليه من عساكر الشام، ومن العرب قاصدًا قتال الأعداء، على الرغم من أن العدو كان بالنسبة لهم أسطورة لم تعرف الهزيمة، في يوم من الأيام، مدمرًا كل ما خلف وراءه من حضارات ومدنيات، وانضم " بيبرس " من أمراء الملك الناصر، بجيشه إلى جيش مصر، كما انضم لمصر أيضًا الملك المنصور، صاحب حماة، الذي لجأ بجنده إلى مصر.

في غزة كان أول لقاء، انتهى بانسحاب التتار إلى شاطئ نهر " العاصي "، كي ينظموا صفوفهم ويجمعوا قواتهم للقاء الفاصل بينهم وبين العرب والمسلمين، ورحل الجيش العربي عن غزة بعد أن أقام بها يومًا واحدًا، واتخذ ساحل البحر الأبيض المتوسط طريقًا له نحو الشمال، والتقى هناك في عكا، ببقايا لجند الفرنجة، الذين هالهم ضخامة استعداد العرب، وقوة الحشد الذي خرجوا به للقتال، وبسيف الرهبة أفسحوا

الطريق للجيش الزاحف، ولكنهم أرادوا الغدر به عن طريق الانضمام إليه حتى يخذلوه ويشيعوا فيه الفرقة وأسباب الهزيمة عند شدة اللقاء، وكان " قطز " يقظًا للعبتهم هذه، فرفض عرضهم هذا، وطلب منهم " أن يكونوا لا له ولا عليه "، وأقسم لهم بأنه متى تبعه منهم فارس، أو رجل يريد أذى عسكر المسلمين، رجع وقاتلهم قبل أن يلقى التتار، تأمينًا لظهر جيش المسلمين.

ثم سار " بيبرس " على رأس جزء من الجيش في مقدمة الزحف، وأخذ في مناوشة طلائع التتار، حتى انتهى الأمر بمجموع الجيشين إلى الوقوف مواجهة عند قرية " عين جالوت " في ١٣ سبتمبر ١٢٦٠ م الموافق يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ، التي انتصر فيه الجيش العربي على التتار وأوقعوا أمراءهم قتلى وأسرى، وجيء بقائدهم " كتبغا " مكبلا بين يدي السلطان الذي فصل رأسه عن جسده كي يطاف بها في مختلف أنحاء البلاد، على حين تعقب " بيبرس " فلولهم وقضى عليهم، وعاد الجيش المنتصر، لتستقبله مدن الشام وقراها، وتتقدم إلى سلطانه إمارته معلنة عودتها إلى الوحدة مع مصر، تلك الوحدة التي كان قد انفرط عقدها منذ أن توفى صلاح الدين الأيوبي.

خاتمة:

سجل التاريخ أنه، على أرض فلسطين، استطاع العرب والمسلمون في " عين جالوت " أن يحسموا لصالحهم جولة من جولات الصراع ضد حضارتهم، وتقدمهم.. وهي الجولة التي هزموا فيها قوة التتار العنصرية، المتحالفة مع الصليبيين، كما كان قد سجل من قبل انتصارات صلاح

الدين الأيوبي، في جولة سابقة ضد الأعداء على الأرض نفسها، أرض فلسطين عام ١١٨٧م.

في كل هذه الجولات كانت الوحدة هي سبيل استعادة الحق العربي الإسلامي، وطريق تحرير هذه الأرض من غاصبيها، كما كان القتال على هذه الأرض، وإحراز النصر فيه، الخيوط التي تنسج، من جديد، وحدة العالم العربي، وتمنحه اليقظة والقوة، وسجل التاريخ في ذلك اليوم، أول هزيمة للجيش التتري، الذي لم يعرف من قبل سوى الانتصارات، كما سجل هزيمة للغرب اللاتيني الصليبي الذي تحالف مع " هولاكو " ضد العرب والمسلمين، ولكن هذا النصر العربي الكبير لم ينه فصول الصراع بين الحضارة العربية وبين الأعداء، فكما تحالف الغرب مع التتار الوثنيين بالأمس ضد العالم العربي، يعود اليوم للتحالف مع الصهيونية العنصرية ضد العروبة ومقدسات المسلمين.

لذلك تبقى دروس انتصار الأمس معالم حية على طريق انتصارنا المأمول، فلقد كانت الوحدة هي طريق النصر في عين جالوت، كما أعاد النصر في عين جالوت وحدة المشرق العربي مع مصر، بعد أن انفرط عقدها منذ أيام " صلاح الدين ".

أمة اقرأ لا تقرأ:

فمنذ قرون طويلة، كان الصراع قائمًا بين الشرق والغرب، وظلت لهذا الصراع دوراته، وموجاته، ومعاركه، رغم تعدد النظم والحضارات التي شهدتها مواطن الغزاة، الذين ظلت أعينهم جميعًا على الشرق طامعين في ثرواته، وكنوزه، وموقعه الاستراتيجي الذي يحكم مركز هذا

الكوكب الذي نعيش فيه.

وقد كان صراع الغرب، ممثلا في الدولة البيزنطية، ضد الشرق ممثلا في الدولة الفارسية القديمة، فصلا من فصول هذا الصراع، امتد على طول قرون عديدة سبقت ميلاد المسيح، وقد استطاع الغرب بقيادة الإسكندر المقدوني أن يحرز في القرن الثاني قبل الميلاد انتصارًا باهرًا للغرب ضد الشرق عندما كون إمبراطوريته الشرقية الواسعة الأرجاء، هي الإمبراطورية التي جعلت سيادة الغرب تدوم أكثر من ثمانية قرون.

وعندما ظهر الإسلام، تسلح العرب بأسلحته المادية، والمعنوية، وأخذوا على عاتقهم مهمة تحرير الشرق من نير الحكم البيزنطي، ففتح المسيحيون المصريون أذرعهم لجيش عمرو بن العاص، ونصروه ضد البيزنطيين، وحارب عرب سوريا الغساسنة ـ وهم نصارى ـ في صفوف الجيش العربي المسلم ضد نصارى الروم، وفي مدة وجيزة، استطاع العرب أن ينفضوا عن كاهل الشرق رداء الغزو الاستعماري الغربي الذي ألقاه على كاهله الاسكندر الأكبر في القرن الثاني قبل الميلاد.

وفي العصور الوسطى، وعلى امتداد قرنين من الزمان (١٠٩٦ - ١٢٩٢م) تجدد الصراع من جديد، وجاء الغرب الاستعماري هذه المرة متخفيًا وراء ستار الصليب، محاولاً ستر أطماعه الاستعمارية الاستيطانية بالدين، واستولى على مساحات من الأرض أقام عليها الإمارات الصليبية، التي فصل بها الشرق العربي عن مصر والمغرب، وأحكم قبضته على مقدرات التجارة العالمية المارة بالشرق العربي، واستيقظ الشرق، وكانت " حطين "، المعركة الفاصلة التي حسمت هذه

الموجة من موجات ذلك الصراع لصالح العرب.

وفي صراع الغرب الاستعماري هذا ضد العرب والعروبة، استعان بالأقليات والقبائل والفئات العنصرية التي لا يكن لها أي ود، ولا تربطه بها أية روابط فكرية، كما حدث مع " التتار " الوثنيين ضد العرب الذي يدينون بدين سماوي.

وفي بدايات العصر الحديث، تعرض الشرق العربي لموجة جديدة من الغزو الغربي، رفع أصحابها هذه المرة رايات التجارة والتجار، فكان ذلك الصراع القائم والمستمر منذ حملة بونابرت على مصر ثم الشام، وفي هذه الموجة والمرحلة من هذا الصراع، استعان الغرب، ولا يزال، بالأقلية العنصرية المتمثلة في اليهود والصهاينة، رغم تاريخ هذا الغرب في حصار اليهود في مدنه كالمنبوذين.

وطوال جميع مراحل هذا الصراع كانت عين الغزاة على مصر، تحاول عزلها عن المشرق العربي، حتى لا تتم للعرب قوتهم بوحدتهم، فكانت الكيانات الصليبية قديمًا تمتد من البحر المتوسط حتى ميناء " آيلة " على خليج العقبة، وحديثًا تقوم في هذا الموقع الدولة الصهوينية لتحق الأهداف نفسها، وهي تطمح في التمكين لهذا العزل بإعطاء " الجدار العازل " المزيد من العرض والطول!.

وطوال المعارك التي شهدها هذا الصراع، كانت وحدة الجبهة القومية العربية، وبالذات وحدة المشرق مع مصر، وتَسَانُد الجبهة الشرقية مع الجبهة الغربية هي المقدمة الضرورية

لإحراز النصر على هذا الغزو الاستعماري، وذلك الجسم المزروع قسرًا في قلب الوطن العربي.

* * *

obeikandl.com

مراجع الفصل الرابع عشر

(١) د. أحمد شلبي، **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة**، الجزء الثالث، القاهرة النهضة المصرية، الطبعة السابعة، ١٩٨٢، ص ١٩ - ٢٦.

(٢) عارف العارف، **تاريخ الحرم القدسي**، القدس، مطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية، ١٩٤٧، ص ١٦.

(٣) **المصدر نفسه**، ص ٤٣ - ٤٤.

(٤) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، والقاهرة، د. ت. ج٩، ص ١١٦ وما بعدها.

(٥) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم العام، المجلد الثالث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤، ص ٢٩٩.

(٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

(٧) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٧ - ٢٥٩.

(٨) **المصدر نفسه**، ص ٣١٧.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ٣١٧.

(١٠) الشيخ محمد الحضري بك، **الدولة العباسية**، تحقيق الشيخ محمد العثماني، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.

(١١) د. محمد عمار، **معارك العرب ضد الغزاة**، بيروت، المؤسسة العربية للدارسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٢، ص ١٢١.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ١٢٣.

* * *

obeikandl.com